دراسة بلاغية
حـــول
قصيدة شعرية

لحسان بن ثابت
بعنوان
(جبل يعلو الجبال)

دكتور
البدرى فؤاد عبد الغنى
مدرس البلاغة والنقد بالكلية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذى جعلنا من طلاب العلم وأهله ، وجعل بيننا وبين العلم لحمة نسب قوية ، شغلتنا عن الذنوب والمعاصى ، وكانت سبباً فى اعتكافنا فى محاريب المكتبات، وملازمتنا لأصدقائنا الأوفياء ، الذين إن غبنا عنهم لم يغتبونا، وإن كنا بجوارهم أطاعونا ، والصلاة والسلام على من زكىّ الله علمه فقال : { عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى }[1] سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين .

وبعد

فمما لاشك فيه أن دراسة الشعر العربى خير وسيلة لفهم القرآن الكريم والسنة النبوية ، وتذوق أساليبهما ونظمهما ، والوقوف على أسرارهما ، وبخاصة إذا كانت هذه الدراسة تتعلق بالعلم البلاغى الذى هو من أعظم العلوم العربية شأنا ، وأعلاها قدرا ؛ لأنه يخدم كتاب الله – تعالى – وسنة نبيه ﷺ ، ولذلك يقول عنه أبو هلال العسكرى : " إن أحق العلوم بالتعلم وأولاها بالتحفظ بعد المعرفة بالله – جل ثناؤه – علم البلاغة ، ومعرفة الفصاحة الذى به يعرف إعجاز كتاب الله – تعالى – ... وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة ، وأخل بمعرفة الفصاحة ، لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف ، وبراعة التركيب ، وما شحنه به من الإعجاز البديع ، والاختصار اللطيف "[2] .

---

(١) الآية ٥ من سورة النجم .

(٢) الصناعين ص ٩ – ت . د / مفيد قميحة – ط دار الكتب العلمية – بيروت – ط الأولى ١٩٨١م .

من أجل ذلك يممت الدراسة وجهها لبعض قصائد حسان بن ثابت الشعرية ؛ لتدرسها دراسة بلاغية ، وتكشف عن مدى وفائها بحق المقام الذى قيلت فيه ، ودقة تعبيراتها وأساليبها ، والقصيدة بعنوان : (..ل يعلو الجبال) .

واختارت الدراسة قصيدة شعرية لحسان بن ثابت من بين الشعراء ؛ لأن حسان بن ثابت شاعر الرسول ﷺ ، وهو من الشعراء المخضرمين الذين عاشوا فى الجاهلية وأدركوا الإسلام ، وله فى كل العصرين شعر محكم قوى ، فضلا عن أنه لما دخل فى الإسلام سخر موهبته للدفاع عن الرسول ﷺ ودعوته.

أضف إلى ذلك أن سبب اختيارها لدراسة القصيدة دراسة بلاغية ، ولم تختر فنا معينا من فنون البلاغة ؛ لأن الدراسة البلاغية الشاملة تكشف عن دقة الشاعر فى تعبيراته ، وحسن اختياره لألفاظه ، وهل كان موفقاً فى ضم فنون البلاغة بعضها إلى بعض أم جانبه الصواب ؟ فضلاً عن أن الدراسة البلاغية لقصيدة من أشق الدراسات وأصعبها ؛ لأنها تحتاج معرفة المقام الذى قيلت فيه القصيدة ؛ للكشف عن مدى وفائها بحق هذا المقام ، كما تتطلب معرفة لغة الشاعر وأساليبه وصوره .

وقد اعتمدت الدراسة على ديوان حسان بن ثابت بطبعة دار ابن خلدون ، وقد جاءت فى مقدمة ، وثلاثة مباحث ، وفهرس للمراجع والمصادر .

فأما المقدمة : فبينت فيها سبب اختيارى لهذا الموضوع .

والمبحث الأول : يشتمل على شقين :

الشق الأول : نبذة عن حسان بن ثابت .

الشق الثانى : عرض القصيدة .

المبحث الثانى : من الأسرار البلاغية فى القصيدة .

المبحث الثالث : نقد القصيدة .

وبعد فهذه محاولة – لأول مرة – للتذوق البلاغى لقصيدة [illegible] حسان بن ثابت الشعرية ، فإن كان فيها جهد فهذا من فضل الله وكرمه ، وإن كانت الأخرى فنسأله أن يتجاوز عن تقصيرنا وزللنا ، وأن يعيننا على تدارك ما فاتنا فى هذه المحاولة ، إنه ولى ذلك والقادر عليه .

* * * * *

الشق الأول : نبذة عن حسان بن ثابت :

نسبه :

هو : حسان بن ثابت من بنى النجار ثم من الخزرج ، ينتهى نسبه إلى قحطان ، فهو إذاً يمنىٌ ، أمه الفُريعة بنت خالد بن قيس من الخزرج كذلك ، كان يكنى أبا الوليد ، وأبا عبد الرحمن ، وأبا الحسام [1] .

مولده :

ولد حسان فى يثرب ، ولم يذكر أحد من رواة أخباره سنة مولده ، ونشأ فيها ، فهو إذاً من أهل المدر ، أى سكان المدن ، والقرى ، وعلى نشأته الحضرية كان متأثراً بالحياة البدوية ، ويظهر ذلك فى شعره ، خصوصاً ما قاله فى جاهليته [2] .

نشأته :

اتصل بالغساسنة ملوك الشام ، فكان يفد عليهم فى عواصمهم كجِلّق والجولان وبُصرى وغيرها ، فيمدح أمراءهم ولاسيما عمرو الرابع ، والنعمان

(١) ينظر : الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ٢ / ٨ – دار الكتب العلمية – بيروت ، وأسد الغابة فى معرفة الصحابة لعز الدين بن الأثير أبي الحسن على بن محمد الجزرى ٢ / ٦ – تحقيق الشيخ / على محمد معوض والشيخ / عادل أحمد عبد الموجود – دار الكتب العلمية – بيروت – ط الأولى ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤م ، والأغانى لأبي الفرج الأصفهانى ٤ / ١٤١ – شرح الأستاذ/ صمير جابر – دار الكتب العلمية – بيروت – ط الثانية ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢م ، وتذيب الأسماء واللغات لأبي شرف النووى ١ / ١٥٦ – دار الكتب العلمية – بيروت ، ومقدمة ديوان حسان بن ثابت ص ٥ ، ٦ – دار ابن خلدون

(٢) ينظر : تهذيب الأسماء واللغات ١/ ١٥٧ ، والأغانى ٤ / ١٤٢ .

السادس ، وحجر بن النعمان ، ويسترفدهم ، فيفيضون عليه نعمهم ، وقد حفظ جميلهم حتى آخر حياته .

ولما ظهر الإسلام وهاجر النبى ﷺ إلى يثرب أسلمت الأوس والخزرج ، وأسلم حسان ، فكان من الأنصار ، على أنه كان مشهوراً بجبنه ، فلم يناصر الدين الجديد بسيفه ، ولم يكن يذهب مع المسلمين إلى القتال ، وإنما كان يتخلف مع النساء فى المنازل ، بيدَ أنه إذا كان لم ينصر الدين الجديد بسيفه فقد نصره بلسانه سلاحه الوحيد الذى شهره على أعداء النبى فصار بذلك شاعر الرسول ﷺ يمدحه ، ويرد على من يهجوه من شعراء قريش ، وكان النبى ﷺ يقول له : إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله "[1] ، وكان أبو بكر يدله على معايب القوم ومثالبهم ، وعلى من ينبغى هجوها من النساء [2] .

شعره :

وشعر حسان فى الجاهلية أجود من شعره فى الإسلام ، قال الأصمعى : " شعر حسان فى الجاهلية من أجود الشعر ، فقطع متنه الإسلام " ..

وقد قيل لحسان : لان شعرك أو هرم فى الإسلام يا أبا الحُسام ، فأجاب : يا ابن أخى إن الإسلام يحجز عن الكذب أو يمنع الكذب ، وإن الشعر يزينه ، يريد بذلك ما يدخل الشعر من المغالاة وتجاوز الحقيقة .

(١) أخرجه مسلم فى كتاب : فضائل الصحابة – باب : فضائل حسان بن ثابت ٤ / ٢٤١ ، ٢٤٢ رقم ٢٤٩٠ .

(٢) ينظر : أسد الغابة ٢ / ٦ ، ٧ .

على أنه مهما قيل فى شعره الإسلامى ، فهو فى نضاله عن النبى ﷺ يصور عصره أصدق تصوير بما فيه من مناضلة بين الإسلام والشرك ، ويعطينا صورة واضحة عن تهاجى الأنصار والقرشيين ، وعما فى هذا الهجاء من فحش وإقذاع ، وهو نوع جديد دخل بشعر حسان الآداب العربية ، نجد فيه الشعر السياسى الصحيح المستند إلى عقيدة ، فكأنه فى تحمسه للدين الجديد يمهد الطريق للشعر الدينى فى الإسلام .

قال أبو عبيدة : فضل حسان على الشعراء بثلاث : كان شاعر الأنصار فى الجاهلية ، وشاعر النبى فى النبوة ، وشاعر اليمن كلها فى الإسلام (١)

وفاته :

قيل : كُفّ بصره فى آخر أيامه ، ومات فى المدينة فى خلافة معاوية ، وكان من المعمرين ، قيل إنه عاش مائة وعشرين سنة ، ستين سنة منها فى الجاهلية ، وستين فى الإسلام ، واختلف المؤرخون فى سنة وفاته ، فقالوا : توفى عام ٤٠ هـ أى ٦٥٩ م ، أو قبل ذلك التاريخ ، وقال آخرون بل سنة ٥٠ هـ / ٦٦٩ ، أو سنة ٥٤ هـ / ٦٧٣م (٢)

* * * * *

(١) ينظر : أسد الغابة ٢ / ٧ ، ٨ ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٨٨ – تحقيق . د / مفيد قميحة – دار الكتب العلمية – بيروت – ط الثانية ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م .

(٢) ينظر : الإصابة ٢ / ٩٨ ، وأسد الغابة ٢ / ٩ .

الشق الثانى : عرض القصيدة (جبل يعلو الجبال) :

أَمَا طَلَلٌ بِالسِّيدَاءِ رَسْمُ المَنَازِلِ ∴ نَعَمْ قَدْ عَفَاهَا كُلُّ أَسْحَمَ هَاطِلِ

وَحُرِّمَتْ عَلَيْهَا الرَّامِسَاتُ ذُيُولَهَا ∴ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا غَيْرُ أَشْعَثَ مَائِلِ

دِيَارُ الَّتِي رَاقَ الفُؤَادَ دَلالُهَا ∴ وَعَزَّ عَلَيْنَا أَنْ نَجُودَ بِنَائِلِ

أَلَا هُنَّ كَحَلاءِ المَدَامِعِ مُطْفِلٍ ∴ تُرَاعِي نَعَامًا يَرْتَعِي بِالخَمَائِلِ

دِيَارُ الَّتِي كَادَتْ وَنَحْنُ عَلَى مِنًى ∴ تُحَلُّ بِنَا لَوْلا نَجَاءُ الرَّوَاحِلِ

أَلا أَيُّهَا السَّاعِي لِيُدْرِكَ مَجْدَنَا ∴ تَأَنَّكَ العُلَى قَارِعْ عَلَيْكَ فَسَائِلِ

فَهَلْ يَسْتَوِي مَاءَانِ أَخْضَرُ زَاخِرٌ ∴ وَحِسِّيٌّ ظَنُونٌ مَاؤُهُ غَيْرُ فَاضِلِ

فَمَنْ يَعْدِلُ الأَذْنَابَ وَيْحَكَ بِالذُّرَى ∴ قَدِ اخْتَلَفَا بِرٌّ يَحُقُّ بِبَاطِلِ

تَعَالَوْا شُهُولاً فِي السَّمَاءِ فَهَاتِهِ ∴ سَتُدْرِكُنَا إِنْ نِلْتُهُ بِالأَنَامِلِ

أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّا بِخَلالَيْنِ أَرْضَ عَدُوِّنَا ∴ تَأَرَّ قَلِيلاً سَلْ بِنَا فِي القَبَائِلِ

لَنَا سَبْقُنَا بِالفَعَالِ وَبِالنَّدَى ∴ وَأَمْرِ العَوَالِي فِي الخُطُوبِ الأَوَائِلِ

وَأَحْسَنُ مِنَّا النَّاسَ مَجْداً وَسُؤْدَداً ∴ تَلِيداً وَذِكْراً نَامِياً غَيْرَ خَامِلِ

أَلَا هَلْ يَعْلُو الجِبَالَ مُشَرَّفٌ ∴ فَنَحْنُ بِأَعْلَى فَرْعِهِ المُتَطَاوِلِ

يُدَافِعُ بِالمَعْرُوفِ وَسْطَ رِحَالِنَا ∴ وَشُبَّانُنَا بِالفُحْشِ أَبْخَلُ بَاخِلِ

إِلَيْنَا خِيَارٌ خَيِّرٌ تَعْلَمُونَ لِسَائِلٍ ∴ عَفَافاً وَعَانٍ مُوثَقٍ فِي السَّلاسِلِ

وَنَحْنُ خِيَارٌ خَيِّرٌ تَعْلَمُونَ لِجَارِهِمْ ∴ إِذَا اخْتَارَهُمْ فِي الأَمْنِ أَوْ فِي الزَّلازِلِ

وَنَحْنُ إِذَا مَا شُبَّتِ الحَرْبُ سَادَةٌ ∴ كُهُولٌ وَفِتْيَانٌ طِوَالُ الخَمَائِلِ

نصرنا وآوينا النبيَّ وصدّقت ∴ أوائلُنا باليمنِ أوّلَ قائلِ

وكنا متى يغزُ النبيُّ قبيلةً ∴ نصل حافتيه بالقنا والقنابلِ

ونحن قُريشٍ إذ أتونا بجمعهم ∴ وظُعنِهم العَدْوَّ وطأةَ المُتثاقلِ

وفي أحدٍ يومٌ لهم كانَ مُخزياً ∴ نُطاعِنُهُم بالسمهريِّ الذوابلِ

ويومَ تقيفٍ إذ أتينا ديارَهُم ∴ كتائبَ نمشي حولَها بالمناصلِ

فسرنا وشدَّ اللهُ ركنَ نبيِّه ∴ بكلِّ فتىً حامي الحقيقةِ باسلِ

فسرنا إلى حِصنِ القُصورِ وغلّقوا ∴ وكائن ترى من مُشفقٍ غيرِ واثلِ

وأعطوا بأيديهم صغاراً وتابعوا ∴ فأولى لكُم أولى حُداةَ الزواملِ

وإني لسهلٌ للصديقِ وإنني ∴ لأعدلُ رأسَ الأصعرِ المُتمايلِ

وأجعلُ مالي دونَ عِرضي وقايةً ∴ وأحجُبُهُ كي لا يَطيبَ لآكلِ

وأيُّ جديدٍ ليسَ يُدرِكُهُ البِلى ∴ وأيُّ نعيمٍ ليسَ يوماً بزائلِ [1]

* * * * *

(١) ديوان حسان بن ثابت – قصيدة : جبل يعلو الجبال ص ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ – دار ابن خلدون .

المبحث الثانى

من الأسرار البلاغية فى القصيدة

أهاجَكَ بالبَيداءِ رَسمُ المَنازِلِ

نَعَم قَد عَفاها كُلُّ أسحَمَ هاطِلِ

بدأ حسان بن ثابت قصيدته بأسلوب استفهامى طلبى (أهاجك بالبيداء) الذى خرج من معناه الحقيقى إلى معنى آخر مجازى هو التشويق والحنين الذى صعد من حدته مشاهدة رسم منازل المحبوبة ، وعمد الشاعر إلى أسلوب الاستفهام فى إثبات التشويق والحنين للمخاطب ، ولو أتى الكلام خالياً من الاستفهام ، فقال مثلاً : إنك تتشوق إلى رسم المنازل لأفاد ذلك المعنى ، ولكن لم يكن له من الإثارة والتشويق ما فى ذلك الأسلوب الاستفهامى الذى بدأ به قصيدته ؛ لأن الاستفهام من الأساليب الإنشائية العجيبة فى مرونتها ، يتصرف به القائل البليغ فى فنون التعبير المصورة لما يرتسم فى نفسه من انطباعات ، فتراه أداة لتصوير الإعجاب أو التعجب أو السخرية أو التشويق أو الإيناس أو غيرها من المعانى الناشئة فى النفس بفعل الدواعى ، حتى يمكن للرسام أن يعطى لوجه المستفهم فى كل منها صورة من وحى تعبيره [1] .

وتقديم الجار والمجرور (بالبيداء) وهى الصحراء للتخصيص وللدلالة على أن ديار المحبوبة كانت منفردة وبعيدة عن الحى ، حيث كانت تسكن الصحراء ، فالتقديم هنا إشارة إلى مغزى وغرض فى نفس حسان بن ثابت ، من

(١) الحديث النبوى من الوجهة البلاغية – د / عز الدين على السيد ص ٣٤٧ سنة ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٣م .

هنا أتت بلاغة التقديم ، حيث يقدم المتكلم فى الجملة ما تحب النفس تقديمه ، ويكون تقديمه أبلغ من تأخيره ، فمثلاً : يقدم بعض أجزاء الجملة حين يكون المقدم هو المحور الذى يدور عليه الحديث ، وهو المقصود أو المراد [1] .

وعرف المسند إليه بالإضافة فى قوله : (رسم المنازل) للإيجاز والاختصار الذى يتطلبه المقام ، ويقتضيه الحال ، كما أن الإضافة هنا أغنت عن التفصيل المتعذر ؛ لتعذر أن يذكر منازل المحبوبة منزلاً منزلاً ، فالتعريف بالإضافة يأتى ؛ لأن (الإضافة) متعينة ، ولا طريق سواها ، أو لكونها أخصر ، أو لأنها سيستغنى بها عن التفصيل المتعذر أو للتشريف " [2]

وتأمل بلاغة التعبير بصيغة الجمع (رسم المنازل) ولم يقل مثلاً : رسم المنزل ؛ لتعدد منازل المحبوبة ، ولذلك أتى بها جمعاً ولم يفصلها منزلاً منزلاً ؛ لأن التفصيل سيزيد من حدة التهييج والحنين ، ودائماً الإنسان فى مثل هذه الأمور يحاول أن يختصر ولا يطنب فى الكلام ؛ لأن الإطناب ليس فى صالحه ، وإنما سيزيد من شوقه وحنينه ، أو يترتب على ذلك زيادة تعبه وقلقه .

وأكد جملة (عفاها كل أسحم هاطل) بأداة التأكيد (قد) للدلالة على تأكيد مضمون هذه الجملة ومحتواها ، فالسحاب الأسود الممطر قد أتى عليها وأزال معالمها ، ولم يبق منها إلا شىء قليل .

---

(١) بلاغة الكلمة والجملة والجمل – د / منير سلطان ص ٢٠٨ – منشأة المعارف بالإسكندرية .

(٢) التبيان فى علم المعانى والبديع والبيان – للعلامة شرف الدين حسين بن محمد الطيبى ص ٧٦ – ت . د / هادى عطية الهلالى – عالم الكتب – مكتبة النهضة العربية – ط الأولى ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧م .

وفصلت جملة (قد عفاها كل أسحم هاطل) عن الجملة التى قبلها (أعاجلك بالبكاء ...) لتنهما من كمال الانقطاع [1] إيهام ، لاختلافهما خبراً وإنشاءً ، فالجملة الأولى فى الشطر الأول من البيت إنشائية لفظاً ومعنىً ، والجملة الثانية فى الشطر الثانى من البيت خبرية لفظاً ومعنىً ، ومن هنا وجب الفصل مراعاة لاستدعاء الحال ، وبلاغة المقام ، وهذا ما أشار إليه الإمام عبد القاهر بقوله : " اعلم أن العلم بما ينبغى أن يصنع من الجمل من عطف بعضها على بعض ، أو ترك العطف فيها ، والمجئ بها منثورة ، تستأنف واحدة منها بعد أخرى من أسرار البلاغة ، ومما لا يتأتى لتمام الصواب فيه إلا الأفراد الخلّص ، وإلا قوم طبعوا على البلاغة وأوتوا فتا من المعرفة فى ذوق الكلام هم بها أفراد " [1] .

وفى التعبير بقوله : (قد عفاها كل أسحم هاطل) مجاز مرسل علاقته السببية ؛ لأن المقصود بقوله : (أسحم) السحاب الأسود ، والذى عفاها ليس هو السحاب وإنما هو المطر ، والسحاب كان سبباً فى المطر .

ويجوز أن يكون فى التعبير السابق – أيضاً – (قد عفاها كل أسحم هاطل) كناية عن تقادم الديار وتمالك أبنيتها حتى أثرت فيها الأمطار وأزالت معالمها ، أما لو كانت الديار حديثة البناء أو قوية المبانى لم تنل منها الأمطار هذا النيل .

وعرف المسند إليه بالإضافة فى قوله :(قد عفاها كل أسحم هاطل) لقصد التحسر ، أى : إن الذى فعل فيها ذلك وأزال معالمها ، هو المطر وليس

---

(١) دلائل الإعجاز – للإمام عبد القاهر الجرجانى ص ٢٢٢ – ت / محمود محمد شاكر – مطبعة المدنى – ط الثالثة ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢م .

شيء آخر ، أضف إلى ذلك أن الإضافة أغنت عن تفصيل متعذر لا يستطيع الشاعر أن يعدده ويحصيه .

ومما يلاحظ فى هذا البيت – أيضاً – من نكات بلاغية ، تقديم بعض معمولات الفعل على بعض ، ففى الشطر الأول من البيت قدم المفعول على الفاعل (أهاجك بالبيداء رسم المنازل) ، فالكاف مفعول ، وتقدم على الفاعل (رسم المنازل) ، فالتقديم هنا ؛ لأن ذكره أهم ، والعناية به أتم ؛ لأن تعلق الفعل بذلك المقدم هو المقصود بالذات ؛ لأن هذا أسلوب تجريد ، حيث جرد من نفسه شخصاً ، يبث له أشواقه تسلية وتصبراً بأن رسم المنازل هيجه وفتح عليه ذكريات ماضية وأحاسيس كانت نائمة ، ويدل على ذلك أنه أجاب نفسه بنفسه فى الشطر الثانى ؛ ولذلك قدم المفعول من أجل هذا الغرض ، أضف إلى ذلك أن تقديم المفعول هنا جاء على حسب ترتيب المعانى فى نفس حسان بن ثابت ، وهذا ما أشار إليه بعض علماء البلاغة المحدثين عندما قال : "أما تقديم بعض المتعلقات على بعض فإنه يجرى على نسق دقيق من مراقبة المعانى ، ومتابعة الأحوال متعددة الأصول ... فمن الأسس التى بنى عليها ترتيب المتعلقات أنهم يقدمون منها ما هو أوثق صلة بغرض الكلام وسياقه"[1] .

كذلك تقديم المفعول على الفاعل فى الشطر الثانى من البيت (قد عفاها كل أسحم هاطل) فـ (الهاء) ضمير مفعول تقدم على الفاعل (كل أسحم هاطل) ، والسر البلاغى فى هذا التقديم أن ذكر رسم المنازل أهم ؛ لأن

(١) خصائص التراكيب – د / محمد محمد أبو موسى ص ٢٩٣ – ٢٤٩ – مكتبة وهبة – ط الثانية ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠م .

الذى يعنى الشاعر رسم المنازل التى محيت بغض النظر عن السبب فى محوها وأزالت معالمها .

ولا ننسى دور ألوان البديع وأثرها فى مطلع القصيدة وهو التصريع[1] بين قوله : (المنازل) فى نهاية الشطر الأول و (هاطل) فى النهاية ، وله قيمة كبيرة فى تحقيق الانسجام والتناغم الذى يجتذب السمع والأبصار ويقطع المخاطبين عن كل شواغلهم ؛ ليقفوا على المتكلم .

كما أن فيه تناسباً فى الألفاظ بين (البيداء – رسم المنازل – هاطل) ؛ لأنها جميعاً يتصور اجتماعها ، ويستلزم بعضها بعضا .

كما أن فيه تناسباً فى المعانى بين (هياج المشاعر والقلب فى الصدر) و (رسم المنازل وإزالة المطر لآثارها) .

وبعد أن بين حسان بن ثابت ما اعتراه من رؤية آثار ديار المحبوبة بعفاها المطر ، وشدة شوقه الذى أهاجه الحنين إليهم ، أكمل ما استرسل فى ذكره واعتراها فقال :

وَجَرَّت عَلَيها الرامِساتُ ذُيولَها

فَلَم يَبقَ مِنها غَيرُ أَشعَثَ ماثِلِ

ساق الشاعر هذا البيت بأسلوب خبرى خال من التأكيد ؛ لقصد السامع بمضمونه ، وقد خرج الخبر من معناه الحقيقى إلى معنى آخر يلائم

(١) التصريع هو : استواء آخر جزء فى الصدر وآخر جزء فى العجز فى الوزن والقافية . تحرير التحبير ص ٣٠٥ .

(٢) الرامسات : الرياح التى تثير التراب ، الأشعث : الوتد المائل المنتصب .

وهو التحسر والندم على طمس معالم الديار ، فبعد أن نالت منها الأمطار ، أتت الرياح لتضرب لها بسهم فى إزالة معالمها ومحو آثارها .

فجاء التعبير بالفعل الماضى (جرت) وبذلك يكون قد عبر عن المسند بالفعل الماضى ؛ ليدل على أن هذا الجرى متحقق واقع قد حدث فى الزمن الماضى الذى يدل على تحقق الوقوع ، فلو أتى بالمسند اسماً لدل على الحدث فقط ، أما الزمن فيحتاج للدلالة عليه إلى لفظ آخر يذكر مع الاسم ، وبهذا يتضح لنا بلاغة التعبير عن المسند بالفعل ؛ لأن الفعل يفيد المراد مع الإيجاز ، ووضع الاسم موضعه يذهب بهذه النكتة البلاغية وهى الاختصار والإيجاز ، وهذا ما عبر عنه صاحب الإيضاح بقوله : " وأما كونه فعلاً فللتقييد بأحد الأزمنة الثلاثة على أخصر ما يمكن مع إفادة التجدد "[1] .

واختيار الفعل (جرت) من بين الأفعال المترادفة كـ (أتت) مثلاً ، أو (مرت) فلعل هذا الفعل يوحى بشدة الرياح وسرعتها ، ولذلك عبر عنها بـ (جرت) .

وتقديم الجار والمجرور (عليها) – العائد على رسم المنازل – على المسند إليه (الرامسات) ؛ لأن ذكره أهم ، والعناية به أتم ؛ لأن تعلق الفعل (جرت) بـ (رسم المنازل) هو المقصود بالذات ؛ لبيان شدة الرياح فى رسم المنازل .

---

(١) الإيضاح للخطيب ٢ / ١١٣ – ت / محمد عبد المنعم خفاجى – المكتبة الأزهرية للتراث – ط الثالثة ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣م .

و (أل) فى قوله:(الرامسات) للعهد ، أى : الرياح المعهودة بطمس المعالم ، لشدتها وحملها للرمال ، وليست كل ريح تفعل ذلك .

والتعبير بقوله : (ذيولها) يفيد كثرة ما جرته الرياح على رسم المنازل من التراب والقتام ؛ لأن ذيل الرياح يقصد به (ما جرته على وجه الأرض من التراب والقتام ، والجمع من كل ذلك : أذيال وأذيل ، والكثير : ذيول "[1] .

والعطف بالفاء فى قوله (فلم يبق) يفيد شدة تأثير الرياح فى رسم المنازل ، فبمجرد جريانها على رسم المنازل أزالت كثيراً من معالمها ، ساعد على ذلك المعنى تقديم الجار والمجرور (منها) الذى يفيد التخصيص والاهتمام ، وكأن الرياح انصبت عليها وحدها .

وفى التعبير بقوله:(فلم يبق منها غير أشعث ماثل) كناية عن شدة وكثرة ما جرته الرياح – من تراب ومخلفات أخرى – على رسم المنازل حتى لم يبق منها إلا ما كان ثابتاً فى الأرض ، ولم يظهر منها إلا ما كان منتصباً .

ثم بعد ذلك يتحدث عن محبوبته فيقول :[2]

دِيارُ الَّتي راقَ الفُؤادَ دَلالُها
وَعَزَّ عَلَينا أن تَجودَ بِنائِلُ

استهل حسان بن ثابت هذا البيت بحذف المسند إليه ، والأصل : هى ديار ، فحذف المسند إليه لدلالة الأبيات السابقة عليه ، فصار المحذوف فى حكم المعلوم ؛ لوجود القرينة الدالة عليه ، ولاشك أن الكلام بحذف المسند إليه أوجز مما لو قال : هى ديار ، ولو ذكر لأورث الكلام ثقلاً وتطويلاً يأبى به عن

---

(١) لسان العرب لابن منظور ٥ / ٧٥ (ذيل) .

(٢) راق : أى أعجب ، دلالها : شكلها وهيئتها ، وعز علينا : غلبنا وشق ، بنائل : النائل : نيل من معروف إنسان .

الإيجـــاز ويجعله فى نظر البليغ عبثاً ينبغى أن يبعد عن كلام البلغاء ، فضلاً عن أن حـــذف المسند إليه خلاف الأصل فتتشوق النفس إلى ذكر الموجب له ، وفى ذلك دفع إلى إعمال الفكر وتنشيط العقل .

أضف إلى ذلك أن حذف المسند إليه فى هذا البيت يوحى بضيق المقام بسبب العجز والحزن والألم الذى يعيشه الشاعر عند مشاهدته الديار ؛ لأنها فجرت أحاسيس نائمة ، وأوقظت عواطف كانت خامدة .

وجاء المسند منكراً فى قوله:(ديار) لإفادة التفخيم والتعظيم والرفع من شأن هذه الديار ؛ لأن من أغراض تنكير المسند كما ذكر الخطيب : " التنبيه على ارتفاع شأنه " [١] .

والتعبير باسم الموصول (التى) للإشارة إلى تعظيم المسند .

وجاء المسند فعلا ماضيا (راق) الذى يدل على تحقق الوقوع فى الزمن الماضى ، واختيار هذا الفعل يدل على رهافة حس الشاعر ، وعلى شدة إعجاب الفؤاد بشكل الديار وهيئتها ؛ لأن (راق) يعنى : أعجب ، و (دلاها) أى هيئتها وشكلها .

وقد قدم الشاعر بعض معمولات الفعل على بعض ، حيث قدم المفعول (الفؤاد) على الفاعل (دلاها) ؛ لأن ذكر الفؤاد أهم ، والعناية به أتم ؛ لأن الشاعر يقصد شدة إعجاب الفؤاد بشكل الديار وهيئتها من هنا قدم المفعول ، وهذا ما عبر عنه علماء البلاغة بقولهم : " وأما تقديم بعض معمولاته على بعض ... ؛ لأن ذكره أهم والعناية به أتم " [٢] .

---

(١) الإيضاح ٢ / ١٢٨ .

(٢) المرجع السابق ٢ / ١٦٦ .

وتعريف المسند إليه بالإضافة فى قوله:(دلاها) يفيد تعظيم شأن المضاف ؛ لأن الإضافة متضمنة معنى التعظيم .

وإذا عاودنا النظر فى الشطر الأول من البيت نجد فيه استعارة مكنية تتمثل فى قوله:(راق الفؤاد) حيث شبه الفؤاد بإنسان له حرية التصرف بالإعجاب والكره ، وحذف المشبه به ورمز إليه بشىء من لوازمه وهو الفعل (راق) بمعنى : أعجب .

وتقديم الجار والمجرور فى قوله:(وعز علينا) لغرض معنوى فى نفس الشاعر ، وكأن هذا الأمر يخصهم ويهمهم وحدهم دون غيرهم .

وعطف جملة (وعز علينا أن تجود بنائل) على جملة (راق الفؤاد دلاها) لما بينهما من توسط بين كمال الانقطاع وكمال الاتصال ، فالجملتان متفقتان فى الخبرية مع وجود الجامع والمناسبة بين الجملتين .

وحذف المسند إليه فى قوله:(أن تجود بنائل) ؛ لدلالة السياق عليه ، والأصل : وعز علينا أن تجود الديار بنائل ، أى : بعطايا من معروف وغيره .

كذلك هناك تناسب فى البيت بين الألفاظ من ناحية الأفعال (راق – عز – تجود) وكذلك بين الأسماء (الفؤاد – الدلال – النائل) ، وكذلك الانسجام بين المعانى ؛ لأن ما راق قلب الشاعر يعز عليه فراقه ، وهذا المعنى يكون الشطر الأول كالإرصاد للشطر الثانى .

ويواصل الحديث عن محبوبته فيقول :[١]

---

(١) مطفل : ذات الطفل ، الجمائل : واحدها جيلة ، وهى الشجر الكثير المجتمع ، الملتف ، الذى لا يرى فيه الشىء إذا وقع فى وسطه . ينظر : لسان العرب ٤ / ٢٢١ (جيل) .